الأزهر



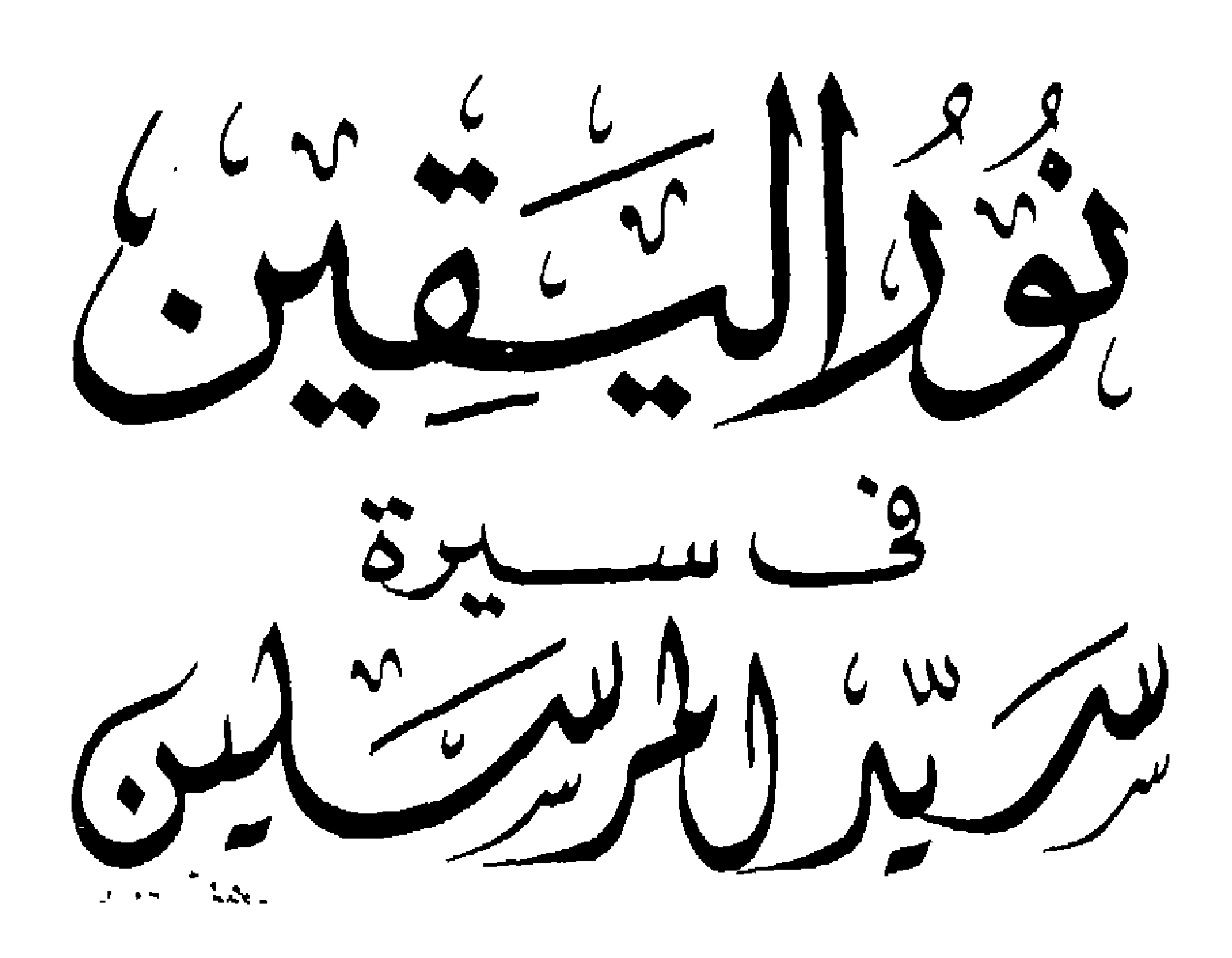
نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

لمؤلفه

محمد الخضرى "بك"

إعداد
رئيس التحرير
د. على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية ربيع الأول ١٤١٢هـ



لمؤلفه

محمد الخضرى "بك"

إعداد

رئيس التحرير

د. على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية ربيع الأول ١٤١٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، كتب على نفسه الرحمة فوسعت رحمته كل شيء ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد إمام المرسلين ورحمة العالمين ، به عرفوا الحق فكانوا لله عُبَّاداً ، ورغبوا عن الباطل فكانوا فيه زُهَّاداً .

وبعد :

فقد درجت مجلة الأزهر - مع كل عام في هذا الشهر المبارك - أن تقدم للمسلمين - تحفة نبوية كريمة في سيرة من سِيَر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووقع الاختيار هذا العام على هذه السيرة التي كتبت لهذا العصر الحديث ، وَجَدَّ كاتبها - رحمه الله - على تقديمها مناسبة للعصر خالية من « الحشو والتعقيد » حتى جاء كتابه « بحمد الله سهل المنال ، عذب المورد تنتفع به العامة وترجع إليه الخاصة » .

وبين - في مقدمته - منهجه ، واهم مراجعه ، على أنه لا يكتشف جهده إلا من عالج قراءة موسوعات السيرة ليرى : كيف اقتطف هذا الراحل الكريم جواهرها من كل روافدها ، وجمعها في كتابه هذا .

ولقد مضى على هذه السيرة المباركة نحو اربعة أخماس القرن ، وهي بعيدة عن أيدي محبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المسلمين وأمام دافع كريم ارجو به رضوان الله - تعالى - امسكت بهذه السيرة ، وراجعتها فوجدتها - على مدار نحو ثمانين عاما - في حاجة إلى :

ا ـ توضيح لبعض مسائلها وتتميم مختصر جدا للبعض الآخر .

ب ـ أو تعقيب على راى قد يصدر عن المؤلف سريعا ، والصواب الأتم فى غيره ، كرؤيته للهدف من رحلة الطائف : وقد تعقبنا امرها فيما سبق أن كتبناه بعنوان « مقدمة قبل الهجرة » واوضحناه هنا .

جـ ـ تحديد (المفهوم) من بعض العبارات كمثل عبارة (بيعة النساء) يعقدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع رجال .

د ـ كذلك كانت فى حاجة إلى ترقيم ما ورد بها من آيات الكتاب العزيز .

هـ ـ واستخدام الترقيم الحديث المعين على توضيح العبارة ، ومعالجة جو صدورها .

وإلى غير ذلك مما سوف يطالعه القارىء إن امتدت بنا حياة لإتمام أجزائه .. والله المستعان .

وأسأله ـ تعالى ـ رضوانه . كما أسأله أن يرضى عنى مؤلفها ـ رحمه الله .

الخطيب

مقـــــدمة

نحمدك يامن اوضحت لنا سبل الهداية . وازحت عنْ بصائرنا غِشاوة الغَواية . ونصلى ونسلم على من ارسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان . يبتغون من الله الفضل والرضوان . والأنصار الذين آووا ونصروا . وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادخروا اما بعد :

فيقول (محمد الخضرى) ابنُ المرحوم الشيخ (عفيفى الباجورى) : كنت اجد من نفسى منذ النشأة الأولى ارتياحا لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين ، واجدها لعقل الإنسان احسن مهذب ، وانصح معلم ، وكنت أرى فى تاريخ نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما لقيه من اذى قومه حينما دعاهم إلى الحق ، وعظيم صبره حتى هجر اوطانه وبلاده اعظم مربّ لأفكار المسلمين ، فإنه يدلهم على مايجب اتباعه ، وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم ، وخصوصا :

ما يتعلق بالحكام من اجتذاب النفوس النافرة ، والتأليف بين القلوب المختلفة .

وما يتعلق بقواد الجيوش من تاليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على اعدائهم .

وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم ؛ فكنت اجد من قراءتها ارتياحا عظيما ،

وكانت نفسى كثيراً ما تاسف على ترك المسلمين لها ، فقلّما اجد من يشتغل بها ولكنى كنت اقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع فلما قدمت مدينة (المنصورة)[1] جمعتنى النوادى مع (محمود بك سالم) القاضى بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علما بدينه تقف دونه فحول الرجال ، وتتاخر عن مسابقته فيه الأبطال ، فقلما توضع مسالة دينية إلا وجدته مبرّزاً فيها مفصحا عن الجواب عنها . اما علمه بسيرة الرسول الأكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعنده منها الخبر اليقين ، وكنت كثيراً ما اسمعه يتشوف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت : يالله لقد وافق هذا السيد الكريم ما فى نفسى ولكنى كنت ارى فى عزيمتى قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم امنيته ، فإن المقام عظيم ، وصعوباته أعظم ، ولكن لم ار من الأمر بداً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال(المنصورة)فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة ؛ فقمت معتمداً على الله راجيا منه أن يوفقنى لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسُّرى[2] حتى بلغت المنى فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة وترجع إليه الخاصة .

---

(١) المنصورة إحدى مدن الجزء الشمالى من مصر ، وفيها أسر لويس التاسع وسجن بها .

(٢) يريد : مواصلة الليل بالنهار .

منهج التأليف

وقد كان موردى فى تاليفه القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخارى ومسلم ، ولم اخرج عنهما إلا فيما لابد منه من تفهيم العبارات فكان يساعدنى (الشفاء) للقاضى (عياض) و (السيرة الحلبية) و (المواهب اللدنية) للقسطلانى و (إحياء علوم الدين) للغزالى .

هذا واسال الله من فيض فضله ان يوفق ائمتنا وامراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإحياء معالم دينه حتى يؤَيَّدُوا بِرُوح من عند الله .

وقد آن ان نشرع فيما قصدناه . مستعينين بحول الله . فنقول :

النسب الشريف

السيد الأكرم الذى شرُف الناسُ بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزُّهرية[١] القرشية .

(ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية[٢] القرشية . وكان عبد المطلب شيخا معظما فى قريش يصدرون عن رأيه فى مشكلاتهم ، ويقدمونه فى مهماتهم .

(ابن هاشم) من زوجه سَلْمَى بنت عمرو النجارية[٣] الخزرجية .

(ابن عبد منافٍ) من زوجه عاتكةَ بنت مُرّة السُّلَمِية[٤] .

(ابن قصىٍّ) من زوجه حُبىَّ بنت حَلِيلٍ الخُزاعِيَّة[٥] ، وكان إلى قصى فى الجاهلية : حجابة البيت ، وسقاية الحاج وإطعامه المسمى بـ(الرفادة) والنَّدوة ـ وهى الشورى ـ لا يتم أمر إلا فى بيته ، واللواء . لا تعقد راية لحرب إلا بيده .

---

(١) من بنى زهرة بن كلاب من قريش .

(٢) من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش .

(٣) من بنى النجار من الخزرج . والخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الأوس والخزرج وهما إخوان وسمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلا أنصارا .

(٤) من بنى سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر .

(٥) من بنى خزاعة بن عمرو إحدى قبائل قمعة بن الياس بن مضر وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش .

ولما أشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده : (عبد الدار) ولكن بنو (عبد مناف) أجمعوا رأيهم على أن لايتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر ، وكاد يفضى الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بني عبد مناف : السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ، ثم لبنيه من بعده .

أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار ، وأقرها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن ، وهم بنو (شيبة بن عثمان بن ابى طلحة بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار) .

وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام ، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة .

وقصى (بن كلاب) من زوجه : فاطمة بنت سعد وهى يمانية من أزْدِ شَنُوءَة .

(ابن مُرَّة) من زوجه : هند بنت سرير من بنى (فهر ابن مالك) .

(ابن كعب) من زوجه : مخشية بنت شيبان من بنى فهر أيضا .

(ابن لؤى) من زوجه : أمِّ كعب مارية بنت كعب من قضاعة .

(ابن غالب) من زوجه أم لؤى عاتكة بنت يَخْلُدَ من بني النضر بن كنانة .

(ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت الحارث من هذيل . و (فهر) هو قريش فى قول الأكثرين .

قبائل قريش :

وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار بن قصى ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرَّة ، وبنو تَيْم ابن مرة ، وبنو عدى بن كعب ، وبنو سهم بن هصيص ابن عمرو بن كعب ، وبنو عامر بن لؤى ، وبنو تيم بن غالب ، وبنو الحارث بن فهر ، وبنو محارب بن فهر .

والمقيمون منهم بمكة يُسَمَّوْن : قريش البطاح ، والذين بضواحيها : قريش الظواهر .

(ابن مالك) من زوجه جَنْدَلَة بنت عامر من جُرْهُم .

(ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عَيْلَان .

(ابن كنانة) من زوجه بَرَّة بنت مُرٍّ من بنى تميم .

(ابن خُزَيمة) من زوجه عَوانَةَ بنت سعد من قيس عيلان .

(ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة .

(ابن الياس) من زوجه خِنْدِفَ المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة .

(ابن مُضَرَ) من زوجه الرَّباب بنت جُنْدَةَ بن مَعَدّ .

(ابن نزارٍ) من زوجه سودة بنت عك .

(ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشَم من جرهم (ابن عدنان) .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين .

أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق ، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم أبى العرب المستعربة .

نسب شريف كما ترى ، آباء طاهرون وأمهات طاهرات لم يزل ـ عليه السلام ـ يتنقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هاديا مَهْديا من أوسط العرب نسبا ؛ فهو من صميم قريش التى لها القدم الأولى فى الشرف ، وعلو المكانة بين العرب ، ولا تجد فى سلسلة آبائه إلا كراما ليس فيهم مسترْذَل ؛ بل كلهم سادة قادة .

وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأنا ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعيا بحسب الأصول العربية ولم ينل نسبَه شئٌ من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله .

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان (عبد الله بن عبد المطلب) من أحب ولد أبيه إليه فزوجه (آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) وسنه ثماني عشرة سنة ، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبا وموضعا ولما دخل عليها حملت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يلبث أبوه أن تُوُفِّيَ بعد الحمل بشهرين ، ودفن بالمدينة عند أخواله بنى (عدىٍّ بن النجار) فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة ، وهو راجع ، ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذى بث فى أرجائه روح الآداب ، وتمم مكارم الأخلاق .

تاريخ الميلاد على التحقيق

وقد حقق المرحوم (محمود باشا الفلكى) أن ذلك كان فى صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الاول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد ، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل[١] ، وكانت ولادته فى دار أبى طالب بِشِعْب بنى

---

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب كعادتهم ، هم وكل أمة فى التاريخ بالأمور المهمة وقد ذكر القرآن هذه الحادثة فى (سورة الفيل) وحاصلها : أن ملكا من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير أغار على مكة ، وقصد هدم كعبتها ، وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله ، فإكراماً للنبى المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء فى تضليل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ وأراح قريشا من عناء مقاومتهم ا هـ .

هاشم ، وكانت (قابلته) الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه (محمداً) ولم يكن هذا الاسم شائعا قبل عند العرب ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذا لأمره ، وكانت (حاضنته) أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله وأول من أرضعه (ثُوَيبةُ) أمة عمه أبى لهب .

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى ليكون أنجب للولد ، وكانوا يقولون : إن المُرَبَّى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة ؛ فجاءت نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن أطفالا يرضعنهم ، فكان (الرضيع المحمود) من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، واسم زوجها أبو كبشة[1] وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن أبى كبشة يُكَلَّمُ من السماء . ودَرَّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم ، وكانت تربو عن أربع سنوات

---

(١) السيرة الحلبية .. المؤلف

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة : بينما هو وإخْوَتُهُ فى بَهْمٍ [1] لنا خَلْفَ بيوتنا إذْ أتى أخوه يَعْدو فقال ـ لى ولأبيه : ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان ، عليهما ثياب بيض ، فأضجعاهُ فشقا بطنه فهما يَسُوطَانِه [2] فخرجت أنا وابوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه [3]. فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يابنى ؟ فقال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : نعم ، فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى ، فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو .

---

(١) جمع بَهْمة ، وهى ولد البقر والضأن...

(٢) يحركانه بسوط .. المؤلف

(٣) شبيها بالنقع وهو التراب ... المؤلف .

وفاة آمنه وكفالة عبدالمطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن امه اخذته منها ، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة اخوال أبيه بنى (عدى بن النجار) وبينما هى عائدة ادركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء[1] فحضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب ، وَرَقّ له رِقّةً لم تعهد له فى ولده ، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً فى المستقبل ، وكان يكرمه غاية الإكرام ، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول ﷺ فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيماً وعليه غيورا ، وكان أبو طالب مقلاً من المال فبارك الله له فى قليله ، وكان الرسول ﷺ فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل بها الأطفال عادة ، كما روت ذلك (أم أيمن) حاضنته فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سَيُيَسِّرُه الله له .

السفر الى الشام :

ولما بلغ سنه[2] عليه الصلاة والسلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام فاستعظم الرسول ـ ﷺ ـ فراقه فرق له وأخذه معه ، وهذه هى الرحلة

---

(١) قرية بين مكة والمدينة وهى اقرب إلى المدينة ... المؤلف .

(٢) السن ـ بمعنى العمر : مؤنثة .

الأولى ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بُصْرَى[1] (بَحِيرَا) الراهب ، فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة من بعثة نبى من العرب فى هذا الزمن فقالوا : إنه لم يظهر للآن وهذه العبارة كثيراً ماكان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2] .

حرب الفِجَار :

ولما بلغ سنُّهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرين سنة حضر حرب الفجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش ، وبين قيس ، وسببها : أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة[3] تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ[4] لتباع له ، وكان يرسلها فى أمان رجل ذى منعة وشرف فى قومه ليجيزها فجلس يوماً ، وعنده البراض بن قيس الكناني ، وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شره وعروة بن عُتبة الرحال فقال : من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أنا أجيزها على بنى كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها

---

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب .. المؤلف .

(٢) سورة البقرة ٨٩ .

(٣) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس فتحها خالد بن الوليد فى السنة الثانية عشرة (راجع إتمام الوفاء) ... المؤلف .

(٤) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب وهى أشبه فى ذلك بمعارض أوروبا الآن .. المؤلف .

على الناس كلهم . فقال عروة : أبيت اللعن[١] أكلب خليع يجيزها لك ؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد[٢] وتهامة[٣] فقال البراض : أو تجيزها على كنانة ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم فأسرها[٤] في نفسه وتربص له حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً ، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيساً قوم عروة ، وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة[٥] فاقتتلوا ، ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله .

ثم إن قيسا قالوا لخصومهم : إنا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل ، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضا ، فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكان معها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وكان رئيس بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبى الكريم ، وكان على بنى أمية حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفا وسنا ، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ، ثم تناجزوا الحرب

---

(١) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما يستحق المذمة .. المؤلف .

(٢) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها .. المؤلف .

(٣) هوما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقى منها يسمى البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق .. المؤلف .

(٤) أى البراض .. المؤلف ..

(٥) موضع بين مكة والطائف ..

فكان يوما من أشد أيام العرب هولا ، ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمى يوم الفجار وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش ، وتعهد بها حرب بن أمية ، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان . وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى ألف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم .

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار تداعَوْا لحلف الفضول فتم فى دار عبد الله بن جُدْعَان التَّيْمِيِّ أحد رؤساء قريش ، وكان المتحالفون بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف وبنى أسد بن عبد العزى وبنى زهرة بن كلاب وبنى تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تُرَدَّ إليه مظلمته ، وقد حضر هذا الحلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أعمامه وقال ـ بعد أن شرفه الله بالرسالة : (لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حُمْرَ النَّعَم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت) ؛ وذلك لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها ، وقد أقر دين الإسلام على كثير منها . يرشدك إلى هذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا .

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغ سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية وذلك أن (خديجة بنت خُوَيلِد

الأسدية)[1] كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه فلما سمعت عن السيد[2] من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه فى غيره حتى سماه قومه الأمين استأجرته ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحا عظيما وظهر للسيد الكريم فى هذه السفرة من البركات ماحببه فى قلب ميسرة غلام خديجة .

زواجه خديجة

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرت من الأمين عليه الصلاة والسلام ، وأرسلت إليه تخطبُه لنفسها ، وكان سنها نحو الأربعين ، وهى من أوسط قريش حسباً ، وأوسعهم مالا ؛ فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبى طالب فزوجها عمها وقد خطب أبو طالب فى هذا اليوم فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضىء[3] مَعَدّ ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال قُلاًّ ،

---

(١) من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى .. المؤلف .

(٢) يريد محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(٣) الضئضىء : الأصل .

فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) وعلى ذلك تم الأمر . وقد كانت متزوجة قبله بأبى هالة تُوفِّىَ عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام .

بنـــاء البيــت

ولما بلغ سنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خمسا وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل ، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويَسْقَفُوها ؛ فإنها كانت رضيمة[1] فوق القامة فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها فى قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل الإصلاح قال : إن الله لايهلك المصلحين وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ، وهناك وجدوا صِحَافاً نُقِشَ فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين ، ثم ابتدءوا فى البناء ، وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مَهْرُ بَغِىٍّ . ولا بَيْعُ رِبَا ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن يحمل ، وكان الذى يلى البناء نجار رومى

---

(١) بناء رضيم مبنى بالصخر ا هـ من أساس البلاغة .. المؤلف .

اسمه (باقوم) وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد (إسماعيل)[1] فأخرجوا منها الحِجْر ، وبنوا عليه جدار قصيراً علامة على أنه من الكعبة ، ولما تم البناء ثمانى عشرة ذراعا بحيث زيد فيه عن أصله تسع أذرع ، ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج . أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تشب بينهم نارُ الحرب ؛ ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، وكان أسن رجل فى قريش ـ إذ ذاك ـ أبو أمية بن المغيرة المخزومى عم خالد بن الوليد فقال لهم : ياقوم لاتختلفوا وحَكِّمُوا بينكم من ترضون بحكمه فقالوا : نَكِلُ الأمرَ لأوَّلِ داخل ، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاطمأن الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة ، وصدق الحديث وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يدارى ولا يمارى . فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه . فأخذه ووضعه فيه . وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيرا ما يكون أمثالها سببا فى انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن يَمُنَّ الله عليهم بعاقل مثل أبى أمية يرشدهم إلى الخير ،

---

(١) أى أن اشتراطهم المال الحلال الطيب هو الذى جعل حصيلتهم منه ضئيلة ، فأما أموالهم من غيره فكثيرة . لكن أبوا إلا الحلال .

وحكيم مثل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقضى بينهم بما يرضى جميعهم ، ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون إليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة ، وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم . قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ.فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[1] وكان يلى أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرْهم ، فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حينا من الدهر ، ثم أخذته منهم قريش فى عهد قصى ابن كلاب ، وبسببه أمنوا فى بلادهم ، فكانت قبائل العرب تهابهم ، وإذا احتموا به كان حصنا أمينا من اعتداء العادين ، وامتن الله عليهم بذلك فى تنزيله فقال فى سورة العنكبوت : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[2] .

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً بل ولد يتيما عائلا فاسترضع فى بنى سعد ، ولما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية ، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على

---

(١) آل عمران ٩٦ .

(٢) العنكبوت ٦٧ .

قراريط[1] كما ذكر ذلك البخارى فى صحيحه ، ووجود الأنبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه ؛ لأنهم لو وجدوا أغنياء لالهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك : فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا ، وكذلك كان موسى وإبراهيم - على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام وكانت حالهم فى صغرهم ليست ذات سعة ، بل كلهم سواء ، تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا لمتبعيهم فى الامتناع عن التكالب على الدنيا ، والتهافت عليها ، وذلك سبب البلايا والمحن . وكذلك رعاية الغنم فما من نبى إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق فى حديث للبخارى وهذه ايضا من بالغ الحكم ؛ فإن الإنسان إذا استرعى الغنم وهى أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفا ؛ فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى ، فيكون فى أعدل الأحوال . ولما شب - عليه الصلاة والسلام - كان يتاجر ، وكان شريكه (السائب بن أبن السائب) وذهب بالتجارة لخديجة - رضى الله عنها - إلى الشام على جعل يأخذه . ولما شرفت خديجة بزواجه - وكانت ذات يسار - عمل فى مالها - وكان يأكل من نتيجة عمله ، وحقق الله له ما امتن

---

(١) اسهم معينة .

عليه به فى سورة الضحى بقوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ.وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ.وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[1] فالإيواء والإغناء قبل النبوة ، والهداية بالنبوة . هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولم يكن يدرى ذلك قبل . قال تعالى فى سورة الشورى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[2] .

سيرته فى قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خلقا ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا فسموه (الأمين) لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضرُ بن الحارث من بنى عبد الدار حيث يقول :

قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر .

---

(١) الضحى ٦ ـ ٨ .

(٢) الشورى ٥٢ .

قال ذلك فى معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . ورد ذلك فى أول صحيح البخارى ، وقد حفظه الله فى صغره من كل أعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها[1] وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديدا حتى ما كان يحضُر لها احتفالا أو عيدا مما يقوم به عُبَّادها وقال عليه الصلاة والسلام :

لما نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان ، وبُغِّض إلى الشِّعر ، ولم أهُمَّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ـ كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته : قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصَرْتَ لى غنمى حتى أدخل مكة فأسْمُرَ كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عَزْفا بالدفوف والمزامير لعُرْسِ بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنىَّ فنمت فما أيقظنى إلا مَسُّ الشمس ولم أقض شيئاً ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك .

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب [2] .

وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه فى قومه شيوعاً عظيماً وذلك كله من الصفات التى يحلى الله بها أنبياءه

---

(١) الشفاء للقاضى عياض ... المؤلف ..

(٢) هى حجارة تنصب تصب عليها دماء الذبائح وتعبد .. المؤلف .

ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه ، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها :

أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذى سيسند إليهم .

وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم . عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

اول منحة من الله له ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم ، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوبُ من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبنا ، ويرحم الله البوصيرى حيث يقول فى (همزيته) :

وإذا سخر الإله أناسا
لسعيد فإنهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه ، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئا ، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب .

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له فى سفره إلى الشام حتى كانت تُظلُّهُ فى اليوم الصائف لا يشترك معه أحد فى القافلة ، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذى كان مشاركا له فى سفره ، وهذا ما حببه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها ، وتيقنت أن له فى المستقبل شأنا ؛ ولذلك لما جاءته

النبوة كانت أسرع الناس إيمانا به ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق وما سمعته من خوارق العادات .

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار[1] فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى ببناء ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع الصلاة والسلام عليك يارسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً ، وقد حدث بذلك عن نفسه وليس فى ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت ، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباط بنى إسرائيل عين ، وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم .

---

(١) السيرة الحلبية .. المؤلف .

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم فمماجاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطابا لسيدنا موسى عليه السلام[1] .

« وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره به ، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبى الذى يجترىء علىّ بالكبرياء ، ويتكلم باسمى بما لم آمره به ، أو باسم آلهة أخرى فليقتل . وإذا أحببتَ أن تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك :

« إن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه » .

ويقول اليهود : إن هذه البشارة لـ « يوشع بن نون » خليفة موسى ـ عليه السلام ـ مع أنهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح فإنهم[2] ارسلوا إلى « يُوحَنا المعْمِدان » (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له : أنت (إيليا) ؟ فقال : لا ، فقالوا : أنت (المسيح) ؟ فقال : لا . فقالوا : أنت (النبى) ؟ فقال : لا . فقالوا : ما بالك إذاً تُعمِّد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبى ؟ » فهذه تدل

---

(١) الإصحاح الثامن سفر التثنية .. المؤلف .

(٢) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .. المؤلف .

على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبى لم يأت حتى زمن المسيح .

ثم إن التوراة تقول ـ فى صفة النبى : « أنه مثل موسى » وقد نصت فى آخر (سفر التثنية) على أنه لم يقم فى بنى إسرائيل نبى مثل موسى ، وورد فى هذه البشارة : (أن النبى الذى يفترى على الله يقتل) ويشبه ذلك فى القرآن قوله تعالى فى سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[1] ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألدَّاء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله ، ومع ذلك عصمه الله منهم ، وانزل عليه ـ تطميناً لخاطره فى سورة المائدة : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] أكان يعجز الله وهو القادر على كل شىء أن يعاقب من ينسب إليه مالم يقله ؟ وهو الذى قال فى سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[3] وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التى نعرف بها صدق النبى من كذبه وهى « الإخبار بما سيأتى » وقد أخبر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها . ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم

---

(١) عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه .. المؤلف .
والآيات من الحاقة ٤٤ ـ ٤٦ .

(٢) المائدة ٦٧

(٣) الشورى ٢٤

الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم ؛ فالإخبار - إذاً - بأن الروم سيردون[1] مافقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضى الله عنه وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن .

وهذا القليل من كثير سيأتيك تفصيله - إن شاء الله تعالى .

وروى القاضى عياض فى الشفاء : أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أجل والله ، إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

[يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل . ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب[2] فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عمياً وآذانا صما وقلوبا غلفاً] .

وروى مثله عن (عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - وهو الذى كان رئيس اليهود ؛ فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم وكذلك (كعب الأحبار) .

---

(١) أى سيستردون .

(٢) شديد الصوت .. المؤلف .

وفى بعض طرق الحديث : ولا صخب فى الأسواق ، ولا قوال للخنا ، أسدده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ،والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته والحق شريعته ، والهدى إمامه والإسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة وارفع به بعد الخمالة ، وأسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متباينة وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته فى التوراة فقال ـ وهو الصادق الأمين :

عبدى أحمد المختار ، مولده مكة ، ومهاجره بالمدينة ـ أو قال طيبة ـ وأمته الحمادون لله على كل حال .

تبشير الإنجيل

بشر عيسى ـ عليه السلام ـ قومه فى الإنجيل بـ (الفار قليط) ومعناه قريب من محمد أو أحمد ، ويصدقه فى القرآن قول الله تعالى فى سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[1] .

وقد وصف المسيح هذا (الفارقليط) بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال :

إنه يوبخ العالم على خطيئته ، وإنه يعلمهم جميع الحق ؛ لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع .

وهذا ماورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى.إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ وقد ورد فى إنجيل برنابا الذى ظهر منذ زمن قريب ، وأخفته حجب[2] الجهالة ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة .

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة : فكان اليهود يستفتحون[3] على عرب المدينة برسول

---

(١) الصف ٦ .

(٢) ترجم إلى العربية وهو الآن مطبوع بمصر ... المؤلف .

(٣) الفتح هو الإخبار .

منتظر ؛ فقد حدث (عاصم بن عمرو بن قتادة) عن رجال من قومه . قالوا : إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحبار يهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور . فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قدّ تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرَم . فكثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا .

وإنما قال لهم اليهود : نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، ولأن من صفته ـ عليه السلام ـ فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة ، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة .

وكان أمية بن أبى الصلت المتنصر العربى كثيراً ما يقول إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا .

وحدث سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له : يا سلمان ، إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة .

وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان ، ولما راسل ـ عليه السلام ـ ملوك الأرض لم يهن كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب أما جميع ملوك النصارى كالنجاشى ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وقيصر ملك الروم

فأكرموا وفادة رسله ومنهم من آمن كالنجاشي ، ومنهم من رد رداً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ، ومنهم من هادى كالمقوقس ، ولم يكن - عليه السلام - فى قوة يرهب بها هؤلاء الملوك . اللهم ماذاك إلا لانهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتى من بعده . ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتى هى أحسن .

أما ما سمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر ، وليس بعدما ذكرته لك زيادة لمستكثر ، ومع ذلك كله فالأعمال التى جاد الله بها على يديه ، والأقوال التى أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته .

وسيأتى عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد ، هداك الله إلى الصراط السوى .

بـــدء الـــوحى

لما بلغ ـ عليه السلام ـ سن الكمال ، وهو أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ، ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى . وأول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصادقة ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وذلك لما جرت به عادة الله فى خلقه من التدريج فى الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال ، ومن الصعب جداً على البشر تلقى الوحى من الملك لأول مرة ، ثم حبب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الخلاء ؛ ليبتعد عن ظلمات هذا العالم ، وينقطع عن الخلق إلى الله ، فإن فى العزلة صفاء السريرة ، وكان يخلو بـ (غار حراء)[1] فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد فتارة عشراً وتارة أكثر إلى شهر ، وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى (غار حراء) فبينما هو قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص ، وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ؛ فإنه ـ عليه السلام ـ أمى لم يتعلم القراءة قبلا ، فأخذه فغطه بالنمط[2] الذى كان ينام عليه حتى بلغ

---

(١) جبل على مقربة من مكة .. المؤلف .

(٢) النمط : ظهارة الفراش ، أو ما يفرش لينام فوقه .

منه الجهد ، ثم أرسله ، فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانيةً ثم أرسله ، فقال : اقرأ : قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] .

فرجع بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرجف فؤاده مما ألم به من الروع الذى استلزمته مقابلة الملك لأول مرة ، فدخل على خديجة زوجه فقال : زملونى [2] زملونى ؛ لتزول عنه هذه القشعريرة فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسى) لأن الملك غطه حتى كاد يموت ، ولم يكن له ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله . فقالت :

كلا ، والله ما يخزيك الله ابداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسب المعدوم ، وتُقْرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مراء ان الله اختارك لهداية قومك .

ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال ، الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين فانطلقت به حتى أتت (ورقة بن نوفل ابن عم خديجة) وكان امرءا قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من

---

(١) العلق ـ ١ ـ ٥ .

(٢) لفونى فى ثوب .. المؤلف .

الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب [1] وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة :

ياابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال : ياابن أخى ما ترى ؟ فأخبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى (لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبرائيل) ثم قال : ياليتنى فيها جذعا (شابا جلدا) إذ يخرجك قومك من بلادك التى نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم . فاستغرب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له ؛ لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول ، حتى سموه (الأمين) وقال : أومخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وقد نطق بذلك القرآن الكريم قال تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [2] ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معضداً) .

ثم لم يلبث ورقة أن توفى .

فتـرة الوحـى

وفتر الوحى مدة لم يتفق عليها المؤرخون وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوما ليشتد شوق الرسول للوحى ، وقد كان ،

---

(١) رواه البخارى أوائل صحيحه .

(٢) إبراهيم ـ ١٣ .

فإن الحال اشتدت به - عليه الصلاة والسلام - حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى ، وهى اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدى له الملك قائلاً : أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره ، ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحى .

عـود الوحـى

فبينما هو يمشى إذ سمع صوتا من السماء فرفع إليه بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض فرعب منه لتذكر ما فعله فى المرة الأولى فرجع ، وقال : دثرونى دثرونى فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[1] حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد اباؤهم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ خصه بالتعظيم ولا تشرك معه فى ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ اى اهجر اسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ امره ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب له أكثر مما وهبت ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله .

---

(١) الآيات أول المدثر .

الـــدعـــوة ســـرًا

فقام - عليه الصلاة والسلام - بالأمر ، ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطا بالعزة والأنفة وهو الذى كثيراً ما كان سبباً فى الغارات والحروب وإهراق الدماء . فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه : فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته .

وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجه وعلى بن أبى طالب ابن عمه وكان مقيما عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره ، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة ، وكان أبو طالب مُقِلا كثير الأولاد ، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعمه (العباس بن عبد المطلب) : إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، والناس فيما ترى من الشدة ، فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً .

فانطلقا ، وعرضا عليه الأمر فأخذ العباس (جعفر بن أبى طالب) وأخذ - عليه الصلاة والسلام - (علياً) فكان فى كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام فكان تابعا للنبى فى كل أعماله ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى .

وأجاب أيضاً (زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى)

مولاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان يقال له : زيد بن محمد لأنه لما اشتراه أعتقه ، وتبناه وكان المتبنى معتبراً كابن حقيقى يرث ويورث ، وأجابه أيضاً أم أيمن حاضنته التى زوجها لمولاه زيد .

واول من أجابه من غير اهل بيته (ابو بكر بن ابى قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى) . كان صديقاً لرسول الله ـ ﷺ ـ قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق ، ولم يعهد عليه كذبا منذ اصطحبا ، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال :

بأبى أنت وأمى أهل الصدق أنت ، اشهد ان لا إله إلا الله وأنك رسول الله[1] .

كان ـ رضى الله عنه ـ صدرا معظماً فى قريش على سعة من المال ، وكرم الأخلاق ، وكان من أعف الناس ، سخياً ببذل المال محبباً فى قومه ، حسن المجالسة ؛ ولذلك كله كان من رسول الله ـ ﷺ ـ بمنزلة الوزير ؛ فكان يستشيره فى أموره كلها ، وقال فى حقه : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر) وكانت الدعوة إلى الإسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يدعو إلا من يثق به .

---

(١) أول النساء إسلاما وأسبقهن إليه خديجة ـ رضى الله تعالى عنها ـ وأول الرجال الأحرار أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه . وأول الموالى : زيد بن حارثة ، وأول الغلمان على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه .

مسلمون على يدى ابى بكر :

ودعا ابو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع : منهم عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى ، ولما علم عمه الحكم بإسلامه أوثقه كتافا ، وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث ، والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه وكان شابا لا يتجاوز العشرين من عمره .

(ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى القرشى وأمه صفية بنت عبد المطلب ، وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه فقواه الله بالثبات ، وكان شابا لا يتجاوز سن الاحتلام .

(ومنهم) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو فسماه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبد الرحمن .

(ومنهم) سعد بن أبى وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى ، ولما علمت أمه (حمنة بنت أبى سفيان بن أمية) بإسلامه . قالت له : ياسعد بلغنى أنك قد صبأت . فوالله لا يظلنى سقف من الحر والبرد وأن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد . وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فجاء سعد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ

وشكا إليه أمر أمه فنزل فى ذلك تعليما قول الله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] وصاه ـ جل ذكره ـ بوالديه ، وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين أما إذا دعواه للإشراك فالمعصية متحتمة ؛ لأن كل حق ـ وإن عظم ـ ساقط هنا ؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . ثم قال : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم ، وفى ختام هذه الآية فائدتان :

التنبيه على أن الجزاء إلى الله فلا تحدث نفسك بجفوتهما لإشراكهما .

والحض على الثبات فى الدين ؛ لئلا ينال شر جزاء فى الأخرى .

(ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى . وقد كان عرف من الرهبان ذكر ـ الرسول وصفته فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ورأى الدين متيناً بعيدا عما عليه العرب من المثالب بادر إلى الإسلام .

السابقون إلى الإسلام

(وممن) سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومى وكان من الموالى .

وعمار بن ياسر العنسى وقد قال ـ رضى الله عنه : رأيت

(١) العنكبوت ـ ٨ .

رسول الله - ﷺ - وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر ، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية .

(ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود كان يرعى الغنم لبعض مشركى قريش ، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه - عليه الصلاة والسلام - من مكارم الأخلاق ترك عبادة الأوثان ، ولزم رسول الله ، وكان - رضى الله عنه - كثير الدخول على الرسول لا يحجب ، ويمشى أمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام فإذا جلس أدخلهما فى ذراعيه .

(ومن) السابقين الأولين : أبو ذر الغفارى ، وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ، ولما بلغه مبعثُ رسول الله قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى . فانطلق الأخ حتى قدم مكة ، وسمع من قول الرسول ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، ويقول كلاما ما هو بالشعر . فقال ما شفيتنى مما أردت فتزود وحمل قربة له فيها ماء ، حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبى - ﷺ - ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله حتى إذا أدركه الليل رآه علىٌّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده ، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شىء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى فعاد إلى مضجعه فمر به على

فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله الذى أضيف به بالأمس فأقامه ، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى إذا كان اليوم الثالث عاد إلى مثل ذلك ، ثم قال له علىٌّ ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟ قال : إن أعطيتنى عهداً وميثاقا لترشدنى فعلت ، ففعل ، فأخبره . قال : فإنه حق وهو رسول الله ؛ فإذا أصبحت فاتبعنى فإنى إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى ، ففعل ، فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبى ، ودخل معه ، فسمع من قوله وأسلم مكانه . فقال له النبى : ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى . قال : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه وقال : ويلكم أو لستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه (رواه البخارى) .

كان رضى الله عنه من أصدق الناس قولا وأزهدهم فى الدنيا .

(ومن) السابقين : سعيد بن زيد العدوى القرشى ، وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر .

وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب .

وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله - ﷺ .

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى القرشى ابن عمة رسوَل الله - ﷺ - وزوجه أم سلمة .

وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى وأخواه : قدامة وعبد الله .

والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى القرشى .

(ومن) السابقين الأولين : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموى القرشى . كان أبوه سيد قريش ، إذا أعتم لم يعتم قرشى إجلالا له ، وكان خالد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء إليه ، وقال : إلام تدعو يامحمد ؟ قال :

ادعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والإحسان إلى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وان لا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك ، وأن توفى لمن عاهدت .

فأسلم - رضى الله عنه - وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت ، فانصرف إلى رسول الله - ﷺ - فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى ضواحى مكة .

وأسلم بعده أخوه : عمرو بن سعيد .

وهكذا دخل هؤلاء (الأشراف) فى دين الإسلام ولم يكن مع رسول الله ـ ﷺ ـ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم .

والذين اتبعوه من (الموالى) اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالا وأنعم عيشة اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله ـ ﷺ ـ من الهدى .

الجهر بالتبليغ

مضت كل هذه المدة والنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يظهر الدعوة فى مجامع قريش العمومية ، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش ، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى مستخفياً .. ولما دخل فى الدين ما يربو على الثلاثين ، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم ، اختار لذلك دار الأرقم بن أبى الأرقم ـ وهو ممن ذكرنا إسلامهم ومكث ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى فى سورة الحجر : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً[2] ممتثلا أمر ربه واثقاً بوعده ونصره ، فصعد على الصفا ، فجعل ينادى :

يابنى فهر ، يابنى عدى ـ لبطون قريش ـ فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريش ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ! قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله فى شأنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا

---

(١) الحجر ٩٤ .

(٢) صحة العبارة : (فبدل الدعوة جهرا بالدعوة سراً) لأن الباء فى هذه المادة تدخل على المتروك .

أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ.وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[1] والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة ، لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب فى نوادى النساء .

ثم نزل عليه فى سورة الشعراء : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[2] وهم : بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أى العشيرة الأقربون ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فجمعهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال لهم :

إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا .

فتكلم القوم كلاما لينا غير عمه أبى لهب الذى كان خصما لدودا ، فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذاً ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

---

(١) سورة المسد بأكملها .

(٢) الشعراء ٢١٤ ـ ٢١٦ .

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش ، واستهزءوا به فى مجالسهم ، فكان إذا مر عليهم يقولون : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء . لا يزيدون على ذلك .

التفاوض مع أبى طالب

فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم ، وقال لهم : والله ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم ثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية ، غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم فذهبوا إلى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه ، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول ، فردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريده لا يضده عن مراده شىء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله - ﷺ -

وحث بعضهم بعضاً على ذلك ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وقالوا له : إن لك سنا وشرفا ومنزلة منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا .

فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له ، قال تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] وقال فى سورة المائدة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2] وقال فى سورة لقمان : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[3] وقال فى سورة الزخرف ـ فى بيان حجتهم الداحضة : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[4] ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[5] فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم ، وقالوا لأبى طالب : إما أن تكفه أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه ، فقال له : ياابن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا لى : كذا ؛ فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فظن الرسول أن عمه خاذله ، فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو

---

(١) البقرة (١٧٠) .
(٢) المائدة (١٠٤) .
(٣) لقمان (٢١) .
(٤) الزخرف ٢٢ .
(٥) الزخرف ٢٤ .

أهلك دونه ، ثم بكى وولى ، فقال أبو طالب : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل عليه فقال : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك .

الايـذاء

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى ، وعظيم الشدة خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين .

(**فأولهم) وأشدهم أبو جهل** : عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشي ـ لعنه الله ـ قال ـ يوما : يامعشر قريش ، إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه . فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ؛ **فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم** ، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما كان يغدو إلى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعاً لونه من الفزع ، ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش فقالوا : مالك ياأبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثله قط ، هم بى أن يأكلنى ، فلما ذكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه ،

وكان أبو جهل كثيرا ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت ، فقال له مرة بعد أن رآه يصلى : ألم أنهك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده ، فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا[1] فأنزل الله تهديداً له فى آخر سورة اقرأ : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ.فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ .

ومن أذيته للرسول : ما حكاه عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ من رواية البخارى ، قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد ، وهو ساجد ، فقام عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى ـ ﷺ ـ وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل ـ عليه الصلاة والسلام ساجداً ـ حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته ، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح ، فقال : اللهم عليك الملأ من قريش ـ وسمى أقواما ـ وقال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر .

ومما حصل لرسول الله مع أبى جهل أن هذا ابتاع أجمالا من رجل يقال له : (الأراشى) فمطله بأثمانها ؛ فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من أبى جهل ، استهزاء لما يعلمونه من

---

(١) أى رجالا .

أفعال ذلك الشقى بالرسول ، فتوجه الرجل إليه ، وطلب منه المساعدة على أبى جهل ، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد . فخرج منتقعا لونه فقال له الرسول : اعط هذا حقه . فقال أبو جهل : لا تبرح حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه . فقالت قريش : ويلك ياأبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابى حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وإن فوق رأسى فحلا من الإبل ما رأيت مثله .

(ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ، كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى القذر على بابه ، لأنه كان جارا له فكان الرسول يطرحه ، أو يقول : يابنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله ، وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصا بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة أبى لهب .

(ومن) المستهزئين عقبة[1] بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله ، وكان يعمل معه كأبى لهب ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش ، وفيهم رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد ، فبلغ ذلك أبى بن خلف الجمحى القرشى ، وكان صديقا له ، فقال : ما شىء بلغنى عنك ؟ قال : لا شىء ، دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له . قال أبى : وجهى من وجهك

---

(١) قتله رسول الله فى غزوة بدر الكبرى

حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبزق فى وجهه وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾[1]

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه ، قال : بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه فى عنق رسول الله ، فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى - ﷺ - وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

ومن جماعة المستهزئين : العاصى بن وائل السهمى القرشى والد عمرو بن العاص ، كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول : غر محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ، فقال الله رداً عليه فى دعواه فى سورة الجاثية .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[2] وكان عليه دين لخباب بن الأرت - أحد رجال المسلمين - فتقاضاه إياه فقال العاصى : أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه

---

(١) الفرقان ٢٧ - ٢٩ .

(٢) الجاثية ٢٤ .

أن فى الجنة ما يبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى إلى هذا اليوم فسأوتى مالا وولداً وأقضيك دينك . فأنزل الله فيه في سورة مريم : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا . كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[1] .

(ومن) جماعة المستهزئين الأسود بن عبد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهرة أخوال رسول الله ، كان إذا رأى أصحاب النبى مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم ؛ لأنهم كانوا متقشفين ، ثيابهم رثة وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسول الله سخرية أما كلمت اليوم من السماء .

(ومنهم) الأسود بن المطلب الأسدى ابن عم خديجة ، كان هو وشيعته - إذا مر عليهم المسلمون سيتغامزون وفيهم نزل فى سورة التطفيف :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ.وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ.وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ.وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾[2] .

(ومنهم) الوليد بن المغيرة عم أبى جهل ، كان من عظماء قريش وفى سعة من العيش ، سمع القرآن مرة من رسول الله - ﷺ - ، فقال - لقومه بنى مخزوم : **والله لقد سمعت**

---

(١) مريم ٧٧ - ٨٠

(٢) المطففين ٢٩ - ٣٢

من محمد آنفاً كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى .

فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فتوجه وقعد إليه حزيناً ، وكلمه بما أحماه ؛ فقام فأتاهم ، فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون : إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا ـ فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر قليلا ، ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فارتج النادى فرحا فأنزل الله فى شأن الوليد فى (سورة المدثر) مخاطبا لرسوله :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾(١) .

وأنزل فيه أيضاً فى سورة ن : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ .... ﴾(٢)

---

(١) المدثر ١١ ـ ٢٦ .

(٢) سورة القلم ـ ١٠ ـ ١٦ .

كثير الحلف ، وكفى بهذا زاجرا لمن اعتاد الحلف ﴿ مَّهِينٍ ﴾ حقير ، وأراد به الكذاب ؛ لأنه حقير فى نفسه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب طعان ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ينقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ ﴾ غليظ جاف ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ دخيل ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ كناية عن الاذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو ، والأنف أشرف مافيه ؛ ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة كالأنفة ؛ وهى الحمية فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة .

(ومن) المستهزئين النضر بن الحارث العبدرى من بنى عبد الدار بن قصى كان إذا جلس رسول الله ـ ﷺ ـ مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر : هلموا يامعشر قريش ؛ فإنى أحسن منه حديثا ، ثم يحدث عن ملوك فارس ، وكان يعلم أحاديثهم ، ويقول : ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين وفيه نزل فى سورة لقمان ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] وكل هؤلاء انتقم الله منهم ، كما قال ـ تعالى ـ فى التنزيل فى سورة الحجر : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ

---

(١) لقمان ٦ ، ٧ .

يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقد وضع الله ـ جل ذكره ـ الوعد فى صورة الماضى للتحقق من وقوعه ؛ لأن الآية مكية .

وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة :

فمنهم من قتل : كأبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط .

ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة .

---

(١) الحجر ٩٥ ـ ٩٦

إسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فقد أدركته الحمية عندما عيرته بعض الجوارى بإيذاء أبى جهل لابن أخيه ؛ فتوجه إلى ذلك الشقى ، وغاضبه وسبه ، وقال : كيف تسب محمداً وأنا على دينه ؟ ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً ، وأشدهم غيرة على المسلمين ، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمى أسد الله .

المؤذون فى سبيل الله :

وكما أُوذى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوذى أصحابه لاتباعهم له ، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه ، وترد كيد عدوه عنه ، وكل هذا الأذى كان حلوا فى أعينهم مادام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم ؛ بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال ـ جل ذكره ـ فى سورة القصص : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١) وقد حقق ما أراد .

(ومن) الذين أوذوا فى الله (بلال بن رباح) كان مملوكاً لـ (أمية بن خلف الجمحى القرشى) فكان يجعل فى عنقه

---

(١) القصص ٥

حبلاً ؛ ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به ، وهو يقول : أحد أحد . لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله ، وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء ، وهى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد أحد . مر به أبو بكر يوماً فقال : ياأمية ، أما تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ؛ فاشتراه منه وأعتقه ، فأنزل الله فيه وفى أمية فى سورة الليل : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ [1] أمية بن خلف ﴿ الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ الصديق ﴿ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى.وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . بما يعطيه الله فى الأخرى جزاء أعماله . وقد نبه الله ـ جل ذكره ـ على أن بذل الصديق ماله فى شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ وقد أعتق غير بلال جماعةً من الأرقاء أسلموا فعاقبهم مواليهم .

(ومنهم) حمامة أم بلال .

وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول .

وأبو فكيهة كان عبداً لـ (صفوان بن أمية بن خلف) .

(ومنهم) امرأة تسمى زنيرة عذبت فى الله حتى عميت

---

(١) الليل « ١٤ ـ ٢١ » .

فلم يزدها ذلك إلا إيماناً ، وكان أبو جهل يقول : ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ماأتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه ، أفتسبقنا زنيزة إلى رشد ، فأنزل الله فى سورة الأحقاف : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١) .

(وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه (أم عنيس) كانت أمة لبنى زهرة ، وكان يعذبها (الأسود بن عبد يغوث) .

(وممن) عذب فى الله (عمار بن ياسر) وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة : اللهم اغفر لآل ياسر ، وقد فعلت .

أما أبوعمار وأمه فماتا تحت العذاب (رحمهما الله) .

وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر ؛ فإن أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه إياها فقال المسلمون : كفر عمار فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عمار ملىء إيماناً من فَرَقِهِ إلى قدمه ، وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد فقال ـ جل ذكره ـ فى سورة النحل : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

(وممن) أوذى فى الله (خباب بن الأرت) سبى فى

---

(١) الأحقاف « ١١ » .

(٢) النحل « ١٠٦ » .

الجاهلية فاشترته أم أنمار وكان حداداً ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب ، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً .

وجاء خباب مرة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده فى ظل الكعبة فقال : يارسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد - عليه الصلاة والسلام - محمراً وجهه ، فقال :

إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق راس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله - تعالى - هذا الأمر حتى يسير الراكب من (صنعاء) إلى (حضرموت)* لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام - وهو فى هذه الحال الشديدة التى لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه ، ثم أنزل الله تعالى - تثبيتاً للمؤمنين - أول سورة العنكبوت :

﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

(*) صنعاء من اليمن الشمالى ، وحضرموت إقليم شرقى صنعاء من اليمن الجنوبى .

(١) العنكبوت « ١ - ٣ » .

(وممن) أوذى فى الله (أبو بكر الصديق) ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة ، فخرج حتى أتى (برك الغماد) [1] ، فلقيه ابن الدُّغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها (القارة) فقال : إلى أين ياأبابكر ؟ فقال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى . فقال ابن الدغنة : مثلك ياأبابكر لا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ؛ فأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع . وارتحل ابن الدغنة معه وطاف فى أشراف قريش فقال لهم : أبوبكر لا يُخرج مثله ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق . فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا له : مر أبابكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ما شاء ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ـ ذلك ـ ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا قد أجرنا أبابكر بجوارك على أن

---

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر وقيل موضع فى أقصى أراضى هجر ا هـ من ياقوت .. المؤلف .

يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان ؛ فأتى ابن الدغنة أبابكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلىّ ذمتى ؛ فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ، فقال أبوبكر فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخارى) .

وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذية لحقته ، ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم ؛ فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شىء دونه سهلاً .

التفاوض المباشر مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم ـ اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمى من بنى

عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان سيداً مطاعاً فى قومه : يامعشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً علة يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ، **فقالوا** : **ياأباالوليد** فقم إليه فكلمه ، فذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى فى المسجد ـ وقال : ياابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل : ياأباالوليد أَسْمَع ؛ فقال : ياابن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ؛ فقال ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لقد فرغت ياأباالوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول سورة فصلت :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) ، فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ؛ فلما رجع عتبة سألوه فقال :

والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يامعشر قريش ، اطيعوني فاجعلوها لى خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ؛ فإن

---

(١) فصلت « ١ ـ ١٤ » .

تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ؛ وإن يظهر على العرب فعزه عزكم .

فقالوا : لقد سحرك محمد .

فقال : هذا رأيي .

محـــاولات اخـرى

(ثم) عرضوا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركوه فى عبادته فأنزل الله فى ذلك : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرُونَ.لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) ، فلا تتوهموا أنى أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله فأيسوا منه .

وطلبوا بعد ذلك أن ينزع ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتى بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جواباً لهم فى سورة يونس : ﴿ قُلْ مَايَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٢) .

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضىء به وهى أنه بينما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين ، إذ أقبل عليه

---

(١) الكافرون كاملة .

(٢) يونس ١٥

عبدالله ابن أم مكتوم الأعمى ـ رضى الله عنه ـ وهو ممن أسلموا قديماً ، والنبى مشتغل بالقوم وقد لقى منهم مؤانسة حتى طمع فى إسلامهم ، فقال له عبدالله : يارسول الله ، علمنى مما علمك الله . وأكثر عليه القول ، فشق ذلك على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكره قطعه لكلامه ، وخاف ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف ، فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [1] فما عبس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدها فى وجه فقير ، وكان إذا أقبل عليه عبدالله ابن أم مكتوم يقول له : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى .

مؤامرات للتعجيز :

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا من باب آخر وهو تعجيز الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطلب الآيات ، فاجتمعوا وقالوا : يامحمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك ، وهى أن تشق لنا القمر فرقتين ، فأعطاه الله هذه المعجزة ،

---

(١) عبس « ١ ـ ١٠ » .

وانشق القمر فرقتين ..!! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اشهدوا ..

وهذه القصة رواها عبدالله بن مسعود ـ وهو من السابقين الأولين ـ رويت عنه من طرق كثيرة .

ورواها عبدالله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر ، وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى أول سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١) فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم : لقد سحركم ابن أبى كبشة فأنزل الله فيهم : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ .

ثم سألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك آيات ، لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد ، فمنها : أن قالوا ـ كما فى سورة الإسراء : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ (٢) . ولم يجبهم الله إلا بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال ـ جل ذكره ـ فى سورة الأنعام : ﴿ وَمَا

---

(١) القمر « ١ ـ ٢ » .

(٢) الإسراء « ٩٠ ـ ٩٣ » .

يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] وكيف يرجى الخير ممن قالوا ـ كما فى سورة الأنفال : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2] ، ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم ، وهذا هو المراد من قوله ـ تعالى ـ فى سورة الإسراء : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [3] ، وقد حصل للمسيح ـ عليه السلام ـ أنه لما وقف أمام (هيردوس) طلب منه آية فلم يجبه إلى طلبه ، فلما رأى ذلك سخر منه ، ورده إلى عدوه (بيلاطس) بعد أن كان يأسف عليه ، ويتمنى لقاءه ، وذلك مذكور فى الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا .

التحول إلى القوة :

(هذا) ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا إلى سياسة القوة التى اختارها قوم (إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ)

---

(١) الأنعام « ١٠٩ » .
(٢) الأنفال « ٣٢ » .
(٣) الإسراء « ٥٩ » .

عندما عجزوا عنه حيث : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ كما فى سورة الأنبياء [1] ، أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتركوا باباً إلا ولجوه ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : تفرقوا فى الأرض ؛ فإن الله سيجمعكم ، فسألوه عن الوجه ؟ فأشار إلى الحبشة .

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذه هى أول هجرة من مكة ، وعدَّة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة ، وهم : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبى رهم وزوجه أم كلثوم .

وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل .

وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهيل بن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجلهم من قريش .

وكان عليهم ـ فيما روى ابن هشام ـ عثمان بن مظعون

---

(١) الأنبياء « ٦٨ » .

فساروا على بركة الله ، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ، ولم يبق مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلا القليل .

إســلام عمـر

وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم .

قالت ليلى [1] إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به فقال لى : إلى أين ياأم عبدالله ؟ فقلت : قد آذيتمونا فى ديننا نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى ..!! فقال : صحبكم الله فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال : ترجين أن يُسلم ، والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فإنه قال - قبيل إسلامه : اللهم أعز الإسلام بعمر ، وكان إسلامه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها ، وقد حقق الله بإسلامه مارجاه - صلى الله عليه وسلم - فقد قال عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - من رواية البخارى :

---

(١) هى ليلى بنت أبى حثمة من كعب بن لؤى عدوية قرشية وزوجها هو عامر ابن ربيعة بن كعب ينتهى إلى ربيعة بن نزار .

(مازلنا أعزة منذ أسلم عمر) ، فإنه طلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن صلاته فى المسجد ، ففعل وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم ، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع منهم حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمى ، وهو من بنى سهم حلفاء بنى عدى قوم عُمر ، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر : ما بالك ؟ فقال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى إن أسلمت . قال : لا سبيل إليك ، فأنا لك جار . فأمن عمر ، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادى ، فقال : اين تريدون ؟ قالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذى صبا [1] .

قال لا سبيل إليه ، فرجع الناس من حيث أتوا .

رجوع مهاجرى الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجرى الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها ؛ لأنهم قليلو العدد ، وفى الكثرة بعض الأنس ، وأضف - إلى ذلك - أنهم أشراف قريش ، ومعهم نساؤهم ، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحال .

خرافة الغرانيق :

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سببا فى رجوع مهاجرى الحبشة وهى أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ

---

(١) صبأ : خرج من دين إلى دين .

عليهم الرسول - ﷺ - سورة النجم ، و [زعموا أنه] تكلم فيها كلاما حسنا عن آلهتهم حيث قال بعد : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾(1) تلك الغرانيق (جمع غرنوق ، وهى الطيور ، ويراد بها الملائكة) العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى فسجدوا إعظاما لذلك وفرحا . وهذا مما لا يجوز [تصديق] روايته إلا على قليلى الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته .

وها نحن نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر .

أما الحديث فسنده ومتنه قلقان :

فالسند قال فيه القاضى عياض فى الشفاء : لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم .

وأما المتن فليس أصحاب رسول الله - ﷺ - ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحا أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم ، فبعد ذكر الأصنام قال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ فيكون الكلام غير منتظم ، ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام ، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة ، فكيف بهذه ؟

وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة ، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء ، وأنزل فيهم فى سورة البقرة : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن

---

(1) النجم « 19 - 20 » .

﴿ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾[1] ولكن لم يسمع عن أى واحد من رجالاتهم ، والمتصدرين للعناد منهم ، أن قال : مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها ؟ ، وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال .

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ، ويجعلونها سببا لرجوع مهاجرى الحبشة يقولون - أثناء كلامهم : إن الهجرة كانت فى رجب والرجوع كان فى شوال ونزول سورة النجم كان فى رمضان ، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفى فى ذاك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإياب منها لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير فى البحر ولا (تلغراف)[2] يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة ، فلا غرابة بعد ذلك أن قلنا : إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ، ولكن الحمد لله فقد من علينا بحفظ كتابنا المجيد الذى يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففى السورة نفسها : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾[3] والذى يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى فكيف يقوله - ﷺ - أو يجرى على لسانه مما يثبت الشكوك فى الوحى ، الأمر الذى يريده السفهاء رد الله كيدهم فى نحرهم .

والذى ورد فى الصحيح فى موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبى - ﷺ - قرأ (والنجم) فسجد

---

(١) البقرة « ١٤٢ » .

(٢) برقية .

(٣) النجم - ٣ .

وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته ، وقال : يكفينى هذا فرأيته قتل بعد كافراً وليس فى هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذى يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافراً أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتد ، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا منهم : على بن امية بن خلف .

(هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له (مجيراً) فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين ، فلم ير أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون .

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول ـ ﷺ ـ دية مضاعفة ويسلمونه ، فابوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على ابى طالب ان يعطوه سيداً من شبانهم يتبناه ، ويسلم إليهم ابن أخيه ، فقال : عجبا لكم تعطوننى ابنكم أغذوه لكم واعطيكم ابنى تقتلونه .

فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب وَلَدَىْ عبد مناف وإخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ؛ فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شِعب أبى طالب ، ودخل

معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب ، فإنه كان مع قريش . وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابنى عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا ياكلون ورق الشجر ، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفى مقدمة المانعين أبو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول - ﷺ - وقومه الشِّعْبَ أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعدوا بعضهم على الاغتراب فهاجر معظمهم ، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً ، وثمانى عشرة امرأة .

وكان من الرجال جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش ، وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن ، وهم الأشعريون :

أبو موسى وبنو عمه ، ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشى ليسلم المسلمين ، فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشى إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته فى قوم لا ذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا فى الشعب قريبا من ثلاث سنوات فى شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شىء من الطعام إلا خفية .

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة . وهم : هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وهو أعظمهم فى ذلك بلاء ، وزهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمة الرسول عاتكة ، والمطعم بن عدى النوفلى ، وأبو البخترى بن هشام الأسدى ، وزمعة بن الأسود الأسدى . واتفقوا على ذلك ليلا ، فلما أصبحوا غدا زهير ، وعليه حلة ، فطاف بالبيت ، ثم أقبل على الناس فقال : ياأهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة . فقال أبو جهل : كذبت .

فقال زمعة لأبى جهل : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

فقال أبو البخترى : صدق زمعة .

وقال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، وصدق على ما قيل هشام بن عمرو ، فقام إليها المطعم بن عدى فشقها ، وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله ، وقد أخبر النبى ـ ﷺ ـ عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة .

وفود نجران

وقد وفد على الرسول - ﷺ - بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم وكانوا عشرين رجلا أو قريبا من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم .

فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم .

فقالوا : سلام عليكم لانجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله فى ذلك فى سورة القصص :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ ﴾(١) .

وقد كان أهل مكة - حينما عجزوا عن أمر رسول الله ، ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة - رموه بالسحر مرة ، وبالكذب أخرى ، وبالجنون طورا وبالكهانة تارة . كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لا يستحى لمزيد عناده أن يقول :

---

(١) القصص ٥٢ - ٥٥ .

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) .

وفاة خديجة رضى الله عنها

وبعد خروجه - ﷺ - من الشعب بقليل ، وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضى الله عنها ، وكان - ﷺ - كثيرا ما يذكرها ويترحم عليها ، ولا غرابة ؛ فهى أول نفس زكية صدقت رسول الله - ﷺ - فيما جاء به عن ربه ، وقد جاء منها بأولاده كلهم ماعدا (إبراهيم) فمنها :

زينب وهى أكبر بناته تزوجها فى الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التى تزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة .

ومنها رقية ، وأم كلثوم تزوجهما عثمان : الأولى بمكة - قبل الهجرة - وهاجر بها إلى الحبشة ، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها .

ومنها فاطمة ، وهى أصغر بناته تزوجها على بن أبى طالب . وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغارا ولم يعش بعد رسول الله - ﷺ - من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلا . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله - ﷺ - حزنا شديدا لما كانت عليه من الرقة لرسول الله - ﷺ - ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى زهرة .

---

(١) الأنفال ٣٢ .

ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله - ﷺ - .
وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر .

زواج سودة

وعقد - ﷺ - فى الشهر الذى ماتت فيه خديجة على (سودة بنت زمعة العامرية القرشية) بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو ، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله ، وخالفت أقاربها وبنى عمها . وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى المرة الثانية خوف الفتنة ، وعقب رجوعه من هجرته توفى عنها ؛ فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول - ﷺ - بزوج رجل آمن به . ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها ، وكرم نسبها فى قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسبا وشرفا .

زواج عائشة رضى الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على (عائشة بنت صديقه أبى بكر) وهى لا تتجاوز السابعة من عمرها ، ولم يتزوج - ﷺ - بكرا غيرها ، ودخل عليها بالمدينة ، أما سودة فدخل عليها بمكة .

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفى عمه أبو طالب الذى كان يمنعه من أذى أعدائه ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به ؛ بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظةمن حياته .

وفيه نزل فى سورة القصص : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] ولكن لأعماله العظيمة التى عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه .

وعدم إسلامه ـ بل هو وغالب أقارب الرسول ـ فيه من الحكمة ما لا يخفى ، فإنهم لو بادروا باتباعه لقيل : قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم ، فجاءوا بهذا الأمر المفترى ، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته ، بل من أعدائها أحياناً ، كعثمان بن عفان من بنى أمية . لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التى كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم : ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وكاهن يتكهن بالغيب .

وقد سمى رسول الله هذا العام الذى فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن .

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله فى حياة أبى طالب ، واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ، ويضعون أوساخ الشاة عليه فى صلاته ، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له : أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ، فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر ، فإنه تقدم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .

---

(١) سورة القصص ٥٦ .

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف[1] يرجو منهم نصرته على قومه[2] ومساعدته حتى يتمم أمر ربه ؛ لأنهم أقرب الناس إلى مكة ، وله فيهم خؤولة فإن أم هاشم بن عبد مناف (عاتكة السلمية من بنى سليم بن منصور) وهم حلفاء ثقيف ؛ فلما توجه إليهم ومعه مولاه : (زيد بن حارثة) قابل رؤساءهم ، وكانوا ثلاثة : عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفى فعرض عليهم نصرته حتى يؤدى دعوته فردوا عليه ردا قبيحا ، ولم ير منهم خيرا ، وحينذاك طلب منهم أن لا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم ؛ لأنه استعان عليهم بأعدائهم[3] فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم واستظل بها وكانت بجوار بستان لـ (عتبة وشيبة ابنى

---

(١) بلد فى الجنوب الشرقى من مكة .. المؤلف .

(٢) هذا أمر لا يسلم للكاتب ـ رحمه الله ـ إنما كان ذهابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الطائف ـ نشرا للدعوة ، ونقل مركزها إلى الطائف لا ليستنصر على قومه بهم ، وقد أشبعنا ذلك بحثا فى مقالاتنا : مقدمة قبل الهجرة .. الخطيب .

(٣) انظر تعليقنا السابق وقارن عمله عليه الصلاة والسلام بالطائف مع عمله مع أهل المدينة ، وانظر هل كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستعين بأهل المدينة على قومه من قريش .. اللهم لا .

ربيعة) وهما من أعدائه ، وكانا فى البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلا :

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى)
فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا إليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عداس ، فلما ابتدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأكل قال : (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عداس : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له ـ عليه الصلاة والسلام : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ فقال : نصرانى من نينوى[1] فقال ـ عليه الصلاة والسلام : قرية الرجل الصالح (يونس بن متى) قال : وما علمك بيونس ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس ، فلما سمع ذلك عداس أسلم .

وأتى جبريل برسالة من الله ـ جل ذكره ـ وقال : إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك فقال ـ عليه الصلاة والسلام : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فقال جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم . ولما كان بنخلة[2] وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن فلما سمعوه أنصتوا له

---

(١) بلد على شاطىء دجلة وهى آخر ما ينتهى إليه العراق وأمامها مدينة الموصل .

(٢) كان نزوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ نخلة عقب تركه الطائف ، أى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اتجه من الطائف إلى نخلة .

ورجعوا إلى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل فى سورة الأحقاف :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم أولها : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾[2] .

الاحتماء بالمطعم بن عدى

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهليها عليهم[3] فأرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل

---

(١) الأحقاف ٢٩ ـ ٣٢ .

(٢) الجن ١ ، ٢ .

(٣) لم يحدث ذلك أبداً .. الخطيب .

مكة فى جواره فأجاب إلى ذلك ، وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف ؛ فقال له بعض المشركين أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير . قالوا : إذاً لا تخفر ذمتك .

وفد دوس

وقدم على رسول الله وهو بمكة : الطفيل بن عمرو الدوسى من قبيلة دوس عشيرة أبى هريرة الصحابى الشهير ، وكان الطفيل شريفاً فى قومه شاعراً نبيلا ، فلما قرأ عليه القرآن أسلم . فقال له رسول الله : اذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام ، ودعا لهم رسول الله فقال : اللهم اهد دوسا ، فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم ، وستأتى وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه فى المدينة .

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج :

أما الإسراء فهو توجهه ليلا إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته .

وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوى .

وقد قال جمهور أهل السنة : إن ذلك كان بجسمه الشريف ، وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تمنع رؤية رسول الله ربه ، وتقول : من قال : إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله .

والإسراء مذكور فى القرآن الكريم قال تعالى ـ فى أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وأما المعراج فقد ورد فى صحيح السنة وأصح أحاديثه مارواه الشيخان ـ ونقله القاضى عياض فى (شفائه) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

أتيت بالبُراق ـ وهوَ دابة فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ـ قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ؛ فاخترت اللبن فقال جبريل : اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ؛ ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة : يحيى ، وعيسى بن مريم ، فرحبا بى ، وَدَعَوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ، ففتح لنا ،

---

(١) اول سورة الإسراء .

وإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطى شطر الحُسْن ، فرحب ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، وذكر مثله ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير ، قال تعالى ـ فى سورة مريم : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(١) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله ، فإذا أنا بموسى ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله ، فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى (البيت المعمور) وإذا هو يَدْخُلُه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى (سدرة المنتهى) فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إلىَّ ما أوحى ، ففرض علىَّ وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ، فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟

قلت : خمسين صلاة .

قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف ؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك ؛ فإنى قد بلوت بنى إسرائيل قبلك وخبرتهم .

قال : فرجعت إلى ربى ، وقلت : ياربى خفف عن أمتى !

---

(١) سورة مريم ٥٧ .

فحط عنى خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عنى خمساً .

قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف .

قال : فلم أزل أرجع بين ربى ـ تعالى ـ وبين موسى حتى قال ـ سبحانه : يا محمد ، إنهن خمس صلوات ـ كل يوم وليلة ـ لكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ، ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة .

قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته . فقال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف . فقلت : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه ».

ثم رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ليلته ، فلما أصبح غدا إلى نادى قريش ، فجاء إليه أبو جهل بن هشام ، فحدثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما جرى له ، فقال أبو جهل : يابنى كعب بن لؤى ، هلموا فأقبل عليه كفار قريش ، فأخبرهم الرسول الخبر ، فصاروا بين مصفق ، وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكارا وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب ، وسعى رجال إلى أبى بكر ، فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق .

قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك . فسمى من ذلك اليوم (صديقاً) .

ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت

المقدس ، وفيهم رجال رأوه ، أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك ، فجلاه الله له ، فصار يصفه لهم بابا بابا وموضعاً موضعاً ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فأخبرنا عن عِيرنا - وكانت لهم عير قادمة من الشام - فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت .

فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت ، يقدمها جمل أورق كما قال محمد . ثم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً حتى قالوا : هذا سحر مبين .

وفى صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله (كيفية الصلاة) وأوقاتها : فيصلى ركعتين إذا ظهر الفجر ، وأربع ركعات إذا زالت الشمس ، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء ، وثلاثا إذا غربت ، وأربعا إذا غاب الشفق الأحمر .

وكان - عليه الصلاة والسلام - قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحا ومثلهما مساء كما كان يفعل إبراهيم - عليه السلام .

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله - ﷺ - أنه يجد من قريش منعه من تأدية الرسالة ، وتسلطَ الكبر والعظمة على قلوبهم ،أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدى غيرهم من العرب ، فكان - عليه الصلاة والسلام - يخرج فى المواسم العربية (وهى أسواق

كانت العرب تعقِدها للتجارة والمفاخرة)[1] ويَعرِضُ نفسه على القبائل ليحموه[2] حتى يؤدى رسالة ربه ، فكان بعضهم يرد ردا جميلا ، وآخرون ردا قبيحا ، وكان من أقبح القبائل ردا بنو حَنيفة رهطُ مسيلِمةَ الكذاب ، وطلب منه بنو عامر ـ إن هُم آمنوا به ـ أن يجعلَ لهم أمرَ الرياسة من بعده . فقال لهم : الأمر لله يضعه حيث يشاء .

وكان من الذين يحجون البيت عربُ يثرب وهى مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان .. إحداهما : من ولَد (الأوس) والثانية من ولَد (الخزرج) وهما أخَوان ، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لاتضع أوزارها بين الفريقين ، فكانوا دائما فى شقاق ونزاع ، وكان يجاورهم فى المدينة أَقْوَامٌ من اليهود ، وهم : (بنو قينقاع) و(بنو قريظة) و(بنو النضير) وكان لهم الغلبة على يثرب أولا ، فحاربهم العرب حتى صاروا ذَوِى النفوذ فيها والقوة ، وكان اليهود ـ إذا خُذِلوا ـ يستفتحون على أعدائهم باسم نبى يُبْعَث قد قرب زمانه ، ولما اختلفت كلمة العرب[3] فيما بينهم وشقت عَصَا الأُلفة حالفوا اليهود على أنفسهم ، فحالف الأوس بنى قُرَيظة ، وحالف الخزرج بنى النضير ، وبنى قينُقاع ، وآخرُ الأيام بينهم (يومُ بُعاثٍ) قتل فيه غالب رؤسائهم ، ولم يبق

---

(١) ليست هذه المواسم فقط ، وإنما أيضا المواسم الدينية فى رجب وشهور الحج .

(٢) فينتقل إليهم وينشر الدعوة من بلادهم .

(٣) عرب يثرب : الأوس والخزرج .

إلا عبدُ الله بن أُبَىّ بن سَلُول من الخزرج وأبو عامر الراهبُ من الأوس ، ولذلك كانت عائشةُ ـ رضى الله عنها ـ تقول : « كان يومُ بعاثٍ يوما قدمه الله لرسول الله ـ ﷺ » :

وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج ، فأرسلوا إيَاسَ بنَ مُعاذٍ وأبا الحيسر انسَ بنَ رافعٍ مع جماعة يلتمسون ذلك الحَلف فى قريش ، فلما جاءوا مكةَ جاءهم رسول الله ، وقال : هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ، ولاتشركوا به شيئا ، وقد أرسلنى الله إلى الكافَّة ، ثم تلا عليهم القرآن . ! فقال إياسُ بن مُعاذ : ياقومُ هذا والله خير مما جئنا له ، فَحَصَبَه أبو الحَيْسَر وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت .

بدء إســلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة ، وكلهم من الخزرج ، وهم : أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارثِ من بنى النجار ، ورافع بن مالكٍ من بنى زُرَيْق ، وقطبة بن عامر من بنى سَلمة ، وعقبة بن عامر من بنى حَرام ، وجابر ابن عبد الله من بنى عبيد بن عدى . ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض : إنه لَلنَّبِىُّ الذى كانت تَعِدكم به اليهود ، فلا يسبِقُنَّكُمْ إليه ، فآمَنُوا به وصدقوه وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ

منك ..!! ووعدُوه المقابلةَ فى الموسم المقبل وهذا هو بدء الإسلام لعرب (يثرب)[1] .

العقبَة الأولى

فلما كان العامُ المقبل قدم اثنا عشر رجلا : منهم عشرَةٌ من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وهم : أسعد بن زُرارة ، وعوفٌ ومعاذُ ابنا الحارث ، ورافع بن مالك ، وذَكْوَانُ بن قيس ، وعُبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عُبَادة ، وعُقْبة بن عامر ، وقطبة بن عامر .

وهؤلاء من الخزرج :

وأبو الهَيْثَم بنُ التَّيْهَانِ ، وعُوَيْمُ بُن ساعدة ، وهما من الأوس فاجتمعوا به ـ ﷺ ـ عند (العقبة) وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساءِ[2] وذلك قبل أن يُفْتَرَضَ الحرب على :

---

(١) كثير من المؤرخين لايعدون هذه الواقعة (عقبة) ويكتفون بالعقبتين بعدها ، والبعض يعتبرونها العقبة الأولى .. جاء فى الترجمة رقم ٤١٣٢ عويم بن ساعدة الانصارى أسد الغابة ص ٣١٦ ، قال العدوى عن ابن القدّاح إنه شهد العقبات الثلاث ذلك أن ابن القداح قال : العقبة الأولى ثمانية والثانية اثنا عشر ، والثالثة سبعون ا . هـ .

فتكون هذه مشهدها العقبة ، ويؤكد ذلك ما ذكر فى نهاية ص ٥ جزء ٢ من السيرة الحلبية . الخطيب .

(٢) لاتفترق (بيعة النساء) عن (بيعة الرجال) إلا بـ (اشتراط الحرب) فى سبيل الله بجانب الرسول ـ ﷺ ـ ولما كانت هذه البيعة قد خلت من اشتراط الحرب سميت (بيعة النساء) . الخطيب .

« ألا يشركوا بالله شيئا ، ولايسرقوا ، ولايزنوا ، ولايقتلوا أولادهم ، ولايأتُوا ببهتان يفترُونهُ بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصونَهُ فى معروف ، فإن وفوْا فلهم الجنة ، وإن غَشُوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء غفر ، وإن شاء عذب » .

وهذه هى العقبة الأولى[1] فأرسل لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ (مُصْعَبَ بنَ عمير العَبْدَرِىَّ) و (عبَد الله ابنَ أم مَكتوم) وهو ابن خالة خديجةَ يُقْرآنهم القرآن ، ويُفقهاَنِهمْ فى الدين ، ونزل مصُعَبٌ على أحد المبايعين : أبى أمامةَ أسعدَ بنِ زُرَارة ، وصارَ يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام ، وبينما هو فى بستان مع أسعد بن زُرارةَ إذ قال سعد بن معاذٍ رئيس قبيلة الأوس لِأُسَيدِ بن حُضَيْر ابن عم سعد : الا تقومُ إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسفهان ضعفاءنا لتزجُرَهما .. ؟ فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه ، فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة .

فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره . فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الإسلام وهداه الله له ، فتشهد ورجع إلى سعد فسأله عما فعل فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا ،

---

(١) أى عند من يعد المقابلة الماضية عقبة أولى وإلا فهى الثانية .. الخطيب .

فغضب سعد ، وقام لهما متغيظا ، ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للإسلام ، ورجع لرجال بنى (عبد الأشهل) وهم بطن من الأوس فقال لهم : ماتعدونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا : قال : كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا . فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه ، وقد انتشر الإسلام فى دور (يثرب) حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام .

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج فى العام الذى يلى البيعة الأولى قدم مكة كثير منهم يريدون الحج ، وبينهم كثير من مشركيهم ، ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة فأمرهم أن لا ينبهوا فى ذلك الوقت نائما ، ولا ينتظروا غائبا ؛ لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا فى نقض ما ابرم ، شأنهم مع رسول الله فى أول أمره .

ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين ، وكان ذلك بعد مضى ثلث الليل الأول ، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، وهما : نسيبة بنت كعب من بنى النجار ، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة ووافقهم رسول الله هناك ، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ولكن اراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون

متوثقا له فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل فى منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم :

إن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته ؛ فإنهم لبمكان عظيم .. !

فقال كبيرهم ، والمتكلم عنهم البراء بن معرور :

« والله لو كان لنا فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله » وعند ذلك قالوا ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ : خذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فقال :

« اشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم » .

فقال له الهيثم بن التيهان :

يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ـ ثم أظهرك الله ـ أن ترجع إلى قومك ، وتدعنا .

فتبسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم .

اى إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته . وحينذاك ابتدأت المبايعة وهى العقبة الثانية[1] فبايعه

---

(١) اى عند من لم يَعُدّ اول اجتماع بالعقبة بين رسول الله ﷺ والستة الخزرجيين .

الرجال على ماطلب . وأول من بايع أسعد بن زرارة ، وقيل : البراء بن معرور ، ثم تخير منهم اثنى عشر نقيباً ؛ لكل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهم : أبو الهيثم بن التيهان ، وأسعد بن زرارة ، وأسيد بن حضير ، والبراء بن معرور ، ورافع بن مالك ، وسعد بن أبى خيثمة ، وسعد بن الربيع ،وسعد بن عبادة ، وعبد الله ابن رواحة ، وعبد الله بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، والمنذر ابن عمرو .

ثم قال لهم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، أنا كفيل على قومى .

ولأمر ما أراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش ، فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار ، وقالوا : يامعشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؛ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم ، وعبد الله بن أبى كبير الخزرج يقول : ما كان قومى ليفتاتوا علىَّ بشىء من ذلك .

هجرة المسلمين إلى المدينة

ولما رجع الأنصار إلى المدينة ظهر بينهم الإسلام أكثر من المرة الأولى .

أما رسول الله - ﷺ - وأصحابه - رضوان الله عليهم - فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوما عليهم

فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسللون خيفة قريش أن تمنعهم . وأول من خرج : أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه . ولكنهم أطلقوها بعد ؛ فلحقت به ، وتتابع المهاجرون ـ فراراً بدينهم ـ ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وابنائهم ، مادام فى ذلك رضى الله ورسوله[1] ، ولم يبق بمكة منهم إلا : أبو بكر وعلى وصهيب وزيد بن حارثة ، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة .

وقد أراد أبو بكر الهجرة ، فقال له ـ عليه الصلاة والسلام : على رسلك ؛ فإنى أرجو أن يؤذن لى .. ! فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك .

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أصيبوا بمس الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له ـ ﷺ ـ على الذود عنه حتى الموت ؛ فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى (دار الندوة) وهى دار

---

(١) أى أنهم تركوا أرض مكة لله ـ تعالى ـ كما يخرج الإنسان عن بعض ماله لله ، لذا لم يحلوا لأنفسهم أن يستوطنوها بعد .. الخطيب .

(قصى بن كلاب) التى كانت قريش لاتقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله - ﷺ - حين خافوه .

فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كى نستريح منه فرفض هذا الرأى ، لأنهم قالوا : إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه .

وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك قبله من الموت . فرفض هذا الرأى كسابقه ؛ لأنهم قالوا : إن الخبر لايلبث أن يبلغ أنصاره ، ونحن أدرى الناس بمن دخل فى دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء ؛ فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه ، وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن فى غنى عنه .

وقال لهم طاغيتهم : بل نقتله ولنمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره نأخذ من كل قبيلة شابا جلدا يجتمعون أمام داره فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل ؛ فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم ؛ بل يرضون بالدية فاقروا على هذا الرأى[1] . هذا مكرهم ، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] فأعلم نبيه بما دبره الأعداء فى سرهم ، وامره باللحاق بدار هجرته ، بدار فيها ينشر الإسلام ، ويكون فيها لرسول الله

---

(١) وهو لأبى جهل لعنه الله .

(٢) الانفال - ٣٠

- ﷺ - العزة والمنعة ، وهذا من الحكمة بمكان عظيم ؛ فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون :

إن قريشا أرادوا ملك العرب فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعداء ألداء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

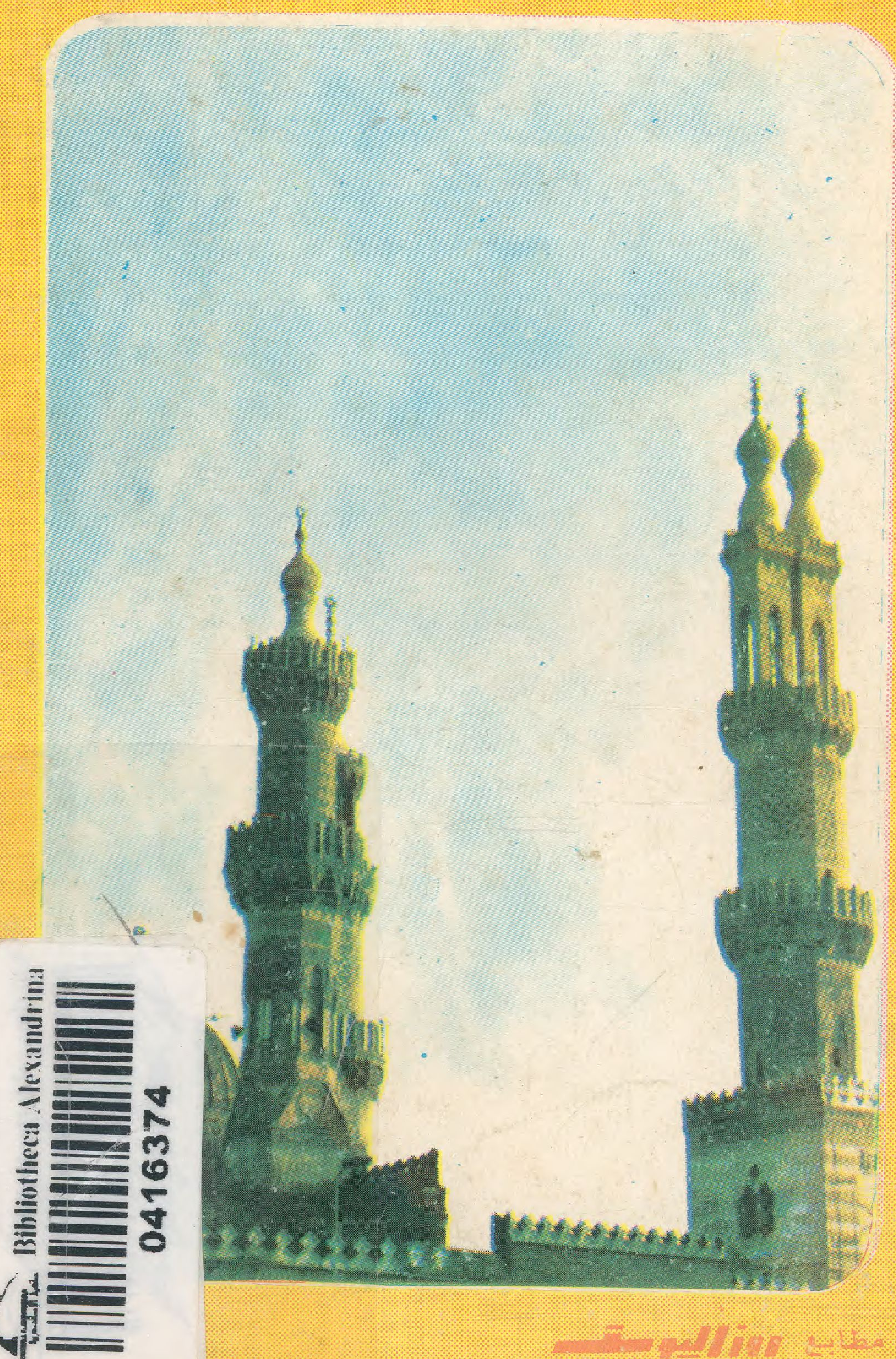
انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى
وأوله هجرة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

AL AZHAR



مطابع روزاليوسف